هـــود 29 :

«وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقـو ربهم » ، معها : آية الشعراء 114 .

هـــود 83 :

« وما هي من الظالمين ببعيد »

يـوســـف 17 :

« وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين »

النحـــل 46 :

« او ياخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين » .

غـافـــر 56 :

« ان فى صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه » .

ابراهيـــم 22 :

« ما انا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » .

يوســـف 44 :

« قالوا اضغاث احلام وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين » .

الشعـــراء 138 :

« وما نحن بمعذبين »

النحـــل 81 :

« وما انت بهاد العمي عن ضلالتهم » معها : آية الروم 53 .

فـاطـــر 22 :

« وما انت بمسمع من فى القبور »

الصافـــات 163 :

« ما انتم عليه بفاتنين » .

التكوير 22 ، 24 :

« وما صاحبكم **بمجنون** ، ولقد رآه بالافق المبين . وما هو على الغيب **بضنين** »

الطـــارق 14 :

« انه لقول فصل . وما هو **بالهزل** » .

القلـــم 2 :

« ما انت بنعمة ربك **بمجنون** »

فهل تكون الباء زائدة مع اطراد مجيئها فى هذه الآيات ، لم تتخلف فيما أذكر الا فى آيتي المجادلـة : « ما هن أمهاتهم » ويوسف : ما هذا بشـرا » ؟

أو هل يكفي القول بان الباء زيدت لمجرد تاكيـد النفي ؟

العربية تعرف اساليب عدة للتاكيد اللفظـــي والمعنوي ، كالقسم والتكـرار ، وادوات التاكيـــد المعروفة

ولابد أن يكون لكل اسلوب منها ملحظ بيانـــي يميزه عن سواه .

وقد نحس فى كل الآيات التي اقترن فيها خبر « ما » بالباء ، أن سياقها لجحد المنفى وانكـــاره . ولعله قد اغنى عن الباء فى آيتي (المجادلة ويوســف) التقرير المستفاد من اسلوب القصر بعدها :

« الذين يظاهرون من نسائهم ما هن امهاتهم ان **امهاتهم** الا اللائي ولدنهم » « وقلن حاش لله ما هذا بشرا **ان هذا الا ملك** كريم »

*

وننظر فى خبر « ليس » فيلفتنا البيان القرآني الى خطا ادراجها جميعا تحت حكم واحد ، يقـــول بزيادة الباء للتاكيد .

واول ما يهدي اليه الاستقراء ، هو ان نفرق بين الجمل الخبرية منها ، والجمل الاستفهامية :

فحيث يجيء النفي بـ « ليس » فى الجمـــل الخبرية ، فى سياق جحد المنفى وانكاره ، اقتـــرن الخبر بالباء : كما فى آيات :

البقـــرة 267 :

« ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه »

آل عمـــران 182 :

« ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس **بظـلام للعبيـــد** » ومعها آيات : الأنفال 51 ، الحج 10 ، فصلت 46

الأنعـــام 66 :

« قل لست عليكم بوكيل »

الأنعـــام 89 :

« فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين »

الأنعـــام 132 :

« كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها »

المائـــدة 116 :

« قال سبحانك ما يكون لي أن اقول ما ليس لي بحـــق »

الحجـــر 20 :

« وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم لـــه برازقين »

الأحقـــاب 32 :

« ومن لا يجب داعي الله فليـــس بمعجز فى الأرض »

المجادلـــة 10 :

« وليس بضارهم شيئا الا باذن الله »

الغاشيـــة 22 :

« فذكر انما انت مذكر، لست عليهم بمصيطر»

ويستغني البيان القرءاني فى الجمل الخبرية ، عن هذه الباء فى خبر ليس ، حين يكون السياق لغير جحد النفي وتقرير انكاره . فآية (الرعد) : النفي فيما من المشركين وما كانوا على يقين مما ينفونه ، وانه للحق لا ريب فيه :

« ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم » 43 وآية (النســـاء) : سياقها الامر بوجوب التبين والتاكد ، قبل التعجل بالنفي : « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا » 94 .

وآية (هود) قد اغنى عن تقرير النفي بالباء ، التعقيب على الجملة الخبرية بما ينقلها من غيب لـــم يقع ، الى ماض قد تقرر وكان :

« ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن ما يحبسه ، الا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » 8 .

وهذه الآيات الثلاث فحسب هي التي لم يقترن خبر « ليس » فيها بالباء ، فى الكتاب العربي المبين .

وسياقها على ما رأينا ، غير السياق فى سائر الآيات التي اقترن فيها خبر « ليس » بالباء ، فافادت من الانكار البات ما لا يدع مجالا لاي شك فى نفي الخبر المقترن بها .

ولا غنى عن الباء فى مثل هذا السياق ، فالخبـــر بطبيعته وفى أصل وضعه اللغوي يحتمل الصدق والكذب والباء هي التي تنقله من أصل وضعه الاول ، الى دلالة النفي البات والانكار الحاسم .

*

فماذا عن خبر « ليس » فى الجمل الاستفهامية ؟ أما هذه فيطرد مجيء الخبر فيها مقترنا بالبـــاء ، ولا يتخلف فى القرآن كله .

وما من آية منها ، يمكن ان تحتمل نفيا أو تاكيدا لنفي ، بل ينتفض النفي بالباء فيها جميعا ويصير الى اثبات جازم وتقرير ملزم ، بحيث تستغني عن جـــواب المستفهم عنه ، أو يجاب بلفظ « بلى » المختص بايجاب ما يستفهم عنه منفيا .

وهذا استقراء لكل ما فى القرآن من استفهام عن جمل منفية بـ « ليس » والخبر فيها صريح مفرد .

الانعـــام 30 :

« ولو ترى اذ ، وقفوا على ربهم ، قال اليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا »

الانعـــام 53 :

« اليس الله باعلم بالشاكرين »

الاعـــراف : 172 :

« واشهدهم على انفسهم الست بربكم ، قالوا بلى شهدنا »

هـــــود 81 :

« ان موعدهم الصبح اليس الصبح **بقريب** »

العنكبـــوت 10 :

« اليس الله **باعلم** بما في صدور العالمين »

يـــس 81 :

« اوليس الذي خلق السموات والارض **بقادر** على ان يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

الزمـــر 26 :

« اليس الله **بكاف** عبده ويخوفونك بالذي من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد » .

الـزمـــر 32 :

« اليس الله **بعزيز** ذي انتقام »

الأحقـــاب 34 :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا **بالحق** قالوا بلى وربنا »

القيامـــة 40 :

« اليس ذلك **بقادر** على ان يحيي الموتى »

التـــين 8 :

« فما يكذبك بعد بالدين ، اليس الله **باحكم** الحاكمين » .

النفي في هذه الآيات جميعا قد انتقض وخرج الى تقرير بات واثبات جازم .

فهل جاء معنى التقرير والاثبات في مثل هـــذه الآيات من خروج الاستفهام عن معناه الأصلي على مـــا قرره علماء البلاغة ، فلا شأن للباء به ؟

معروف أن الاستفهام قد يخرج الى هذا الوجه من التقرير ، كما قد يخرج الى وجوه أخرى كالاسترحام أو الزجر والوعيد او التوقع والانتظار .

وهذه الآيات خاصة بالاستفهام عن منفي بليس ، وقد انتقض النفي فيها جميعا وخرج الى تقرير واثبات، لا الى اي وجه آخر من الوجوه التي يعرفها البلاغيون في خروج الاستفهام عن أصل معناه .

ومن حيث اطرد اقتران الخبر فيها جميعا بالباء ، تعين أن يكون لهذه الباء اثرها في تحديد الدلالة البيانية وتعيينها على الوجه الذي لا يحتمل وجها آخر .

ولو قلنا مثلا :

« الست غافلا عما حولك » او « اليس الصبـــح قريبـــا » .

لا يحتمل الاستفهام أن يكون على معناه الاصلي ، وأن يخرج الى التوبيخ أو التنبيه او السخرية والتهكم او التوقع والترقب .

ولا شيء من هذه المعاني والدلالات مما تحتملـــه آيات الاستفهام عن منفي بليس ، وانما هي للتقريـــر والحسم والاثبات ، لا لمعنى آخر .

وهذا هو **سر الباء** التي قالوا انها زائدة للتأكيد، ثم جروا على ابطال عملها اصالة في الخبر ، واعربوه منصوبا بفتحة مقدرة ، منع ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

كأنما هو حرف مقحم يمكن الاستغناء عنه ، لكيلا يشغل المحل بحركته فيمنع من ظهور الحركة الاصلية!

*

وخلاصة ما هدى اليه الاستقراء لآياتها في البيان القرآني :

— أن الجمل الخبرية المنفية بما ، اذا تلاها الفعل « كان » بقي خبره منصوبا غير مقترن بالباء . ووجه الاستغناء عن الباء أن النفي بحرف « ما » لا يتجه الى الخبر مباشرة ، بل يتسلط علـــى مضمون الجملة من : كان واسمها وخبرها .

— حيثما جاء الخبر منفيا بما أو ليس في الجمـــل الخبرية واقترن الخبر بالباء ، **افادت الانكار بما لا يدع مجالا لشك** في نفي الخبر المقترن بها .

وتلزم الباء خبر (ما) و (ليس) في الجمل الخبرية بالبيان القرآني في هذا السياق ، ولا تتخلف الا حيث يكون المقام مستغنيا عن تقرير النفي أو محتملا لشك في نفي الخبر .

— في الجمل الاستفهامية يطرد اقتران خبر ليـــس بالباء . وبها ينتقض النفي ويخرج الاستفهام الى اثبات جازم وتقرير بات ، لا الى اي وجه آخر من الوجوه التي يعرفها علم البلاغة في خروج الاستفهام عن معناه الاول في أصل اللغة .

ولا يمكن الا يكون للباء اثرها في تحديد هـــذه الدلالة البيانية وقد اطرد اقترانها بخبر (ليـــس) في اسلوب الاستفهام بالبيان القرآني .

واذ كشف حرف الباء عن سره فى البيان الاعلى، يبدو القول بزيادته مما يجفوه حس العربية المرهف ، ولا يلطف من هذه الجفوة أن لم يعنوا بها الحشـــو والفضول بل ادرجوها تحت الحكم العام لمعنـــى التاكيد بالباء الزائدة .

ولا ادري ما اذا كان يجدي أن أقول فى هذه الباء غير ما قرره النحاة ، لتبقى حرفا اصليا غير زائد على اصل معناها فى الالصاق (1) .

وتعمل عملها المباشر فى الخبر ملصقة به غير مقول بزيادتها ، ومنهما معا يستفاد خبر المنفى بما وليس !

غير اني لا اشك فى اننا لو عرضنا كل الحروف المقول بزيادتها على البيان القرآني المعجز لهـــدى الاستقراء والتدبر الى ملاحظة بيانية ذات بال .

وسياتي فى القسم الثالث من هذا البحث مثل آخر من قولهم بزيادة حرف (لا) النافية قبل القسم فى مثل قوله تعالى :

« لا اقسم بيوم القيامة ، ولا اقسم بالنفـــس اللوامة » .

وننظر فى حروف اخرى لم يتاولوها على تقرير زيادتها بل قد روها محذوفة ، ومضوا فى تفسيـــر الآيات على تقدير الحرف محذوفا وهو مراد .

ولناخذ مثلا ، حذف حرف (لا) مقدرا فى آيات :

يوســـف 85 :

« قالوا تالله تفتا تذكر يوسف »

النســـاء 176 :

« يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شـــيء عليـــم »

البقـــرة 184 :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين »

قيل فيها جميعا بحذف « لا » النافية مقدرة ، وهي مـــــرادة

وتاويل الحذف فيها يخضع للقاعدة النحوية فى حذف « لا » النافية .

والنحويون يقولون بحذفها اطرادا فى جـــواب القسم اذا كان المنفى مضارعا ، وقدموا له شـواهـــد قليلة من الشعر .

اما القرآن الكريم فقدموا منه الآية :

« تالله تفتا تذكر يوسف »

والذي نفهمه هو انه متى اطرد الحـــــذف كقولهم (2) فالسياق حتما مستغن عنه ، ولا وجه اذن لتقدير الحرف ثم تاويل حذفه .

لان السياق متى اعطى المعنى المراد مستغنيـا عن هذا الحرف او غيره ، كان ذكره من الفضول او الحشو الذي ينأى عنه الكلام البليغ فضلا عن البيان المعجز .

اما ما جوزوا فيه الحذف بغير اطراد ، فذكر « ابن هشام » فى (مغنى اللبيب) انه قيل به فى آية :

« يبين الله لكم أن تضلوا » .

على تقدير « لئلا تضلوا » ، ثم اضـــاف :

« وقيل المحذوف مضاف ، اي كراهة ان تضلوا »

والآية من آيات الأحكام فى التشريع القرآنـــي للمواريث ، وسياقها مستغن تماما عن تقدير حـــرف محذوف لم يجد النص القرآني حاجة الى ذكره ، اذ لا يخطر على بال من له ادنى المام بالعربية ، ايهام أن يكون المعنى : يبين الله لكم لتضلوا ! !

وانما يبين الله لنا ما نتقي به الضلال .

ومتى اعطى السياق المعنى المراد مستغنيا عن الحرف الذي قدروه محذوفا ، فذكر المحذوف الذي لا حاجة اليه ينزه عنه البيان العالي ، اذ لو كان الحذف

---

1) اقتصر « سيبويه » فى (الكتاب) على الالصاق فى معنى حرف الباء . واحصى « ابن هشام » اربعة عشر معنى لها ، الالصاق اولها . وذكر فيه :
« وقيل هو لا يفارقها »
انظر حرف الباء فى الجزء الاول من (مغنى اللبيب)) .

2) مغنى اللبيب : 2 ــ 155 ط مصر .

مما يوقع فى شبهة ابهام ، لاقتضى المقام فى آيـــة تشريع ، وجوب ذكره دفعا لاي وهم او لبس .

*

وتبقى آية البقرة فى تشريع احكام الصوم :

« يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من أيام اخر . وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » 184 .

والكلام فيها يطـــول :

الحذف فيها ليس مما يطرد على قواعد النحاة، وانما هو مما يجوز ولا يطرد .

وقد اختلف المفسرون فى تاويلها :

— منهم من قال بأن الحكم فيها منسوخ بالآيـة بعدها ، والرخصة فيها للمريض والمسافر . وهذا القول بالنسخ ، هو ما اختاره الامام « الطبري » فى تفسيره ونقله « الزمخشري » فى (الكشاف) « وابو حيان » فى (البحر المحيط) مع التصريح بأن « هذا قول اكثر المفسرين » (1) .

على ان « الامام الطبري » نقل كذلك قول من قالوا » لم ينسخ ذلك ولا شيء منه ، وهو حكم مثبت من لدن نزلت هذه الآية الى قيام الساعة (2) .

واحترز « ابن كثير » فقال بعد تلخيص اقوال المفسرين قبله :

« فحاصل الامر ان النسخ ثابت فى حـــق الصحيح المقيم بايجاب الصيام عليه ، واما الشيـخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله ان يفطر ولا قضاء عليه ، لانه ليست له حال يصير اليها يتمكـن فيها من القضاء » (3) .

وتردد « الزمخشري » بين القول بالنسخ وبين ان يكون تاويل الآية على تقدير : وعلى من « يتكلفونه على جهد منهم وعر ، وهم الشيوخ والعجائز . وحكم هؤلاء الافطار والفدية ، وهو على هذا الوجه غيـر منسوخ » (4) .

على ان القائلين بعدم النسخ قد ذهبـــوا فى تاويل الآية مذاهب شتى :

— فمنهم من صرح بانها على تقدير حذف « لا » النافية وهي مرادة . ونقلوا عن ابن عباس قولـه : « لا رخصة الا للذي لا يطيق الصوم » .

وعن عطاء : « هو الكبير الذي لا يستطيع بجهد ولا بشيء من الجهد . واما من ايستطاع بجهد فليصمه ولا عذر له فى تركه » .

وقال « ابو حيان » فى البحر .

« وجوز بعضهم أن تكون « لا » محذوفة ، فيكون الفعل منفيا وتقديره :«وعلى الذين لا يطيقونه» حذف لا وهي مرادة » .

ثم عقب :

« وتقدير « لا » خطا ، لانه مكان الباس ؛ الا ترى ان الذي يتبادر اليه الفهم هو ان الفعلمثبت.. »

— وآخرون من المفسرين لم يصرحوا بتقدير «لا» محذوفة ، وان كانوا يؤولون الآية بما يعطل الحكم مع الاثبات فى « يطيقونه »

اما بتقدير : وعلى الذين كانوا يطيقونه فى حال شبابهم وصحتهم ثم عجزوا عنه بالشيخوخة والمرض .

نقله الطبري وابو حيان . واخذ به البغوي فقال:

« وعلى الذين كانوا يطيقونه فى حال الشبـــاب فعجزوا ، والرخصة ثبتت للذين لا يطيقونه (5) .

واما بتاويله على تقدير : من يدركه رمضان وعليه صوم قضاء من رمضان المتقدم ، فقد كان يطيق فى تلك المدة فتركه ، فعليه الفدية .

ولا اعلم خلافا بين الفقهاء فى جواز الفطر والفدية للشيخ الهرم والمريض لا يرجى برؤه فيتضى ، لكنهم اختلفوا فى المرضع والحامل قياسا على الشيخ الهرم :

---

1) ابو حيان : البحر المحيط ، 36/2
2) تفسير الطبري : 82/2
3) تفسير ابن كثير : 405 ط المنار .
4) الكشاف : ج 1 سورة البقرة
5) تفسير البغوي على هامش ابن كثير : 404 ط المنـــار .